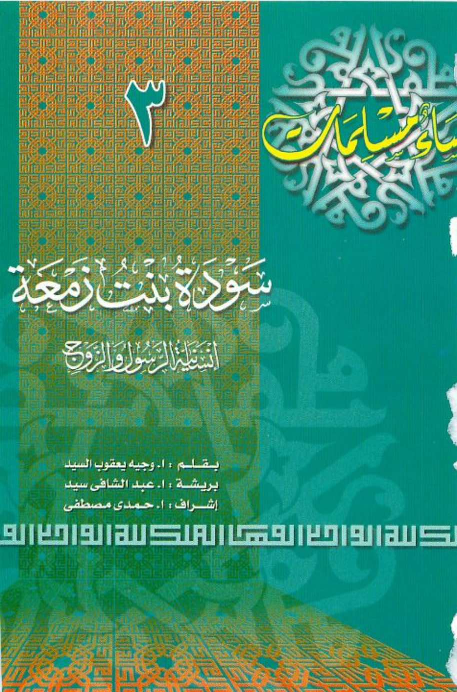

ساء مسلمات
٣
سودة بنت زمعة
أنيسة الرسول والزوج
بقلم : ا. وجيه يعقوب السيد
بريشة : ا. عبد الشافى سيد
إشراف : ا. حمدى مصطفى

تركتْ وفاةُ السيدة (خديجةَ بنت خُويلد) فراغاً كبيراً فى نَفْسِ الرسول ﷺ ، فقدْ كانتْ نعمَ الأنيسُ ، الذى يُواسى النبىَّ ﷺ ويُخفِّفُ عنه آلامَهُ ويشدُّ منْ أزْرِه .

وتساءَلَ الصحابَةُ بعدَ موت (خديجةَ) :

ـ هلْ يبقَى الرسولُ ﷺ بلا زوجةٍ بعدَ وفاةِ أمِّ المؤمنينَ (خديجةَ بنتِ خويلد) ؟

وانطلقتْ (خولةُ بنتُ حكيمِ السلميَّةُ) إلى رسولِ اللَّه ﷺ لتُفاتحَهُ فى موضوعِ زواجِه ، فقالتْ له فى تلطُّفٍ ورفقٍ :

ـ يارسولَ اللَّه ، كأنِّى أراكَ قدْ أصابَتْكَ وَحْشةٌ لفقدِ (خديجةَ) !

فقالَ النبىُّ ﷺ فى تأثُّرٍ :

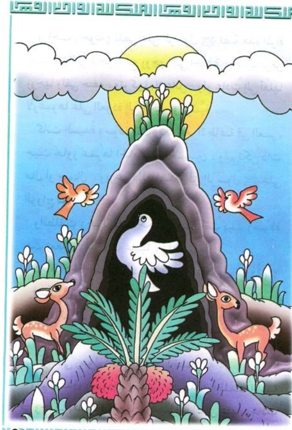
ـ أجلْ ، كانتْ أمَّ العيالِ وربَّةَ البيتِ .

وانتهزتْ (خولةُ بنتُ حكيمٍ) الفرصةَ ، وقالتْ :

ـ يا رسولَ اللَّه ، أفلا أَخْطُبُ لَكَ ؟

وسألَها الرسولُ ﷺ عمَّنْ تَقْصِدُها (خولَةُ) ، فقالتْ :

ـ يا رسولَ اللَّه ، أخْطُبُ لَكَ (سَوْدَةَ بنتَ زَمْعَةَ) ، أرملةَ السكرانِ بنِ عمرو الأنصارىِّ .



وراحتْ (خولةُ) تَقُصُّ على الرسول ﷺ قصَّةَ هذه المرأة المجاهدة، التى هاجرتْ مع زوجها إلى الحبشة، وهناك مَرِضَ زوجُها ولقِيَ حتفَهُ، وتركها بلا عائل، ولو عادتْ إلى أهْلها لأرْغَمُوها على العودة إلى الكفرِ والوثنيَّة.

كانت السيدةُ (سودةُ بنتُ زمعةَ) امرأةً طاعنةً فى العمرِ، حيثُ تجاوزَ عمرُها الخامسةَ والخمسينَ، ولم تكنْ ذاتَ مالٍ أو جمالٍ، وبرغمِ ذلكَ فقدْ وافقَ الرسولُ ﷺ على الزواجِ بها.

وانطلقتْ (خولةُ بنتُ حكيمٍ) حتَّى أتتْ بيتَ (سودةَ بنتِ زمعةَ)، فدخلتْ عليها، وقالتْ لها:

ـ ماذا أدْخلَ اللَّهُ عليك منَ الخيرِ والبركةِ يا (سودةُ)؟

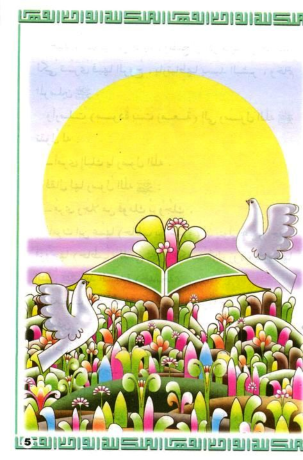
فسألتْ سودةُ فى دهشة:

ـ ماذا لديكِ يا خولةُ؟

فقالتْ:

ـ أرْسلنى رسولُ اللَّهِ ﷺ لكىْ أخْطُبَكِ له.

ولم تصدِّقْ (سودةُ) نفسَها، فبعدَ أَنْ أظلمت الدنيا فى وجهها بعدَ وفاةِ زوجها، وانصرافِ الناسِ عنها، عادت



الحياةُ تبتسمُ لها من جديد ، وتفتحُ لها ذراعيها عن آخرهما ، لكى تسْرىَ فيها الروحُ ، بارتباطِها بسيد البشرِ ، وخاتمِ المرسلينَ ﷺ .

وأرسلتْ (سـودةُ بنتُ زمعـةَ) إلى رسـولِ اللَّه ﷺ تقولُ له :

ـ أمرى إليكَ يا رسولَ اللَّه .

فقالَ لها رسولُ اللَّه ﷺ :

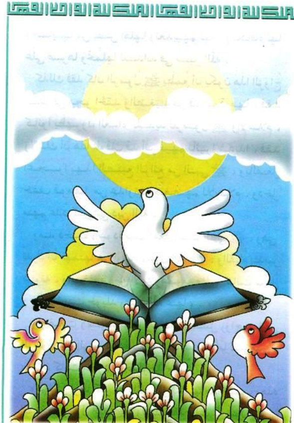
ـ مُرِى رجُلاً من قَوْمكِ يُزوِّجُك .

فأمرتِ ابنَ عمِّها (حاطبَ بنَ عمرو) أنْ يتولَّى أمرَ زواجِها ، فزوَّجَها (حاطبُ) للنبىِّ ﷺ ، فكانتْ أول زوجةٍ يتزوَّجُها النبىُّ ﷺ بعدَ السيدة (خديجةَ) .

وتعجَّبَ بعضُ أهلِ مكَّةَ منْ هذا الزواجِ ، وقالوا غيـرَ مُصدِّقينَ :

ـ امرأةٌ فى هذا العمرِ ، غيرُ ذاتِ مالٍ ولاجمالٍ ، يتزوَّجُها (محمدٌ) بعد (خديجةَ بنت خويلد) سيدة نساء قريش ؟

لكنَّ هذا كانَ يُؤكِّدُ نبلَ أخلاقِ الرسولِ ﷺ ، فقدْ كانَ الغرضُ الأساسىُّ منْ هذا الزواجِ هو مواساةُ هذه الزوجة ،



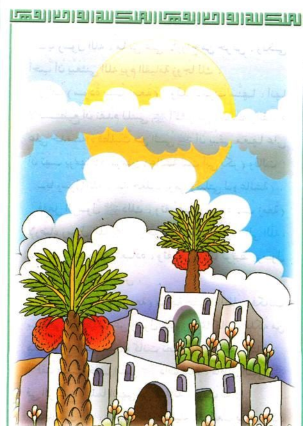
وحمايتُها من بطش أهلها وتعذيبهم لَهَا ، ومكافأةً لها على صبرها وتحمُّلها للشدائد فى سبيل اللَّه .

كذلكَ فقدْ كانَ الرسولُ ﷺ يطْمَعُ أنْ يكونَ هذا الزواجُ سببًا فى مَحْوِ الحقد والضغينة منْ قلوب قومها ، فقدْ كانُوا يُظْهِرُونَ العداءَ الشديدَ للرسول ﷺ والإسلام ، ولاشكَ أنَّ هذا الموقفَ قد أثَّرَ فيهمْ تأثيراً شديداً ، فقدْ أُعْجِبُوا بهذا الصنيعِ الرائعِ من النبىِّ ﷺ ، وبالفعلِ خفَّفَ قومُها من عداوتهمْ وبُغْضِهِمْ للإسلامِ ، ودخل منهم عددٌ كبيرٌ فى دينِ اللَّه .

ومنذُ دخلتْ (سَوْدَةُ بنتُ زمعةَ) بيتَ النبىِّ ﷺ ، وهىَ تُدركُ أنَّ مهمتَها هى إرضاءُ رسول اللَّه ﷺ ، والقيامُ بتدبيرِ شئُونه ، والتخفيفُ من آلامه وهُمُومه مثلما كانتْ تفعلُ (خديجةُ بنتُ خويلد رضىَ اللَّهُ عنها) .

وارتفعتْ (سَوْدَةُ بنتُ زمعةَ) بفضْلِ زواجها من الرسول ﷺ إلى مرتبة عالية ، حيثُ صارتْ أُمًّا للمؤمنينَ ، بعدَ أنْ كانتْ مجرَّدَ زوجة لرجل منهُمْ .

ولم تكنْ تريدُ أكثرَ منْ ذلكَ ، بلْ يكفيها هذا النسبُ وهذه الصلةُ منْ رسول اللَّه ﷺ ، ولذلكَ فقدْ قالتْ للرسول ﷺ :



ـ يا رسولَ اللَّه ، ما بى على الأزواج من حِرْصٍ ، ولكنِّى أُحبُّ أنْ يَبْعَثَنِى اللَّهُ يومَ القيامة زوجًا لك .

ورأتْ (سَوْدَةُ بنتُ زمعةَ) ، وقد كَبِرَتْ سنُّها ، أنها لا تستطيعُ أنْ تُقَدِّمَ للنبىِّ ﷺ أكثرَ من رعايتِه والقيامِ على خدمتِه ، فطلَبَتْ من النبىِّ ﷺ أنْ يَبْقَى معها على أنْ تَهَبَ يومَها لأمِّ المؤمنين (عائشة بنت أبى بكر) وقالتْ :

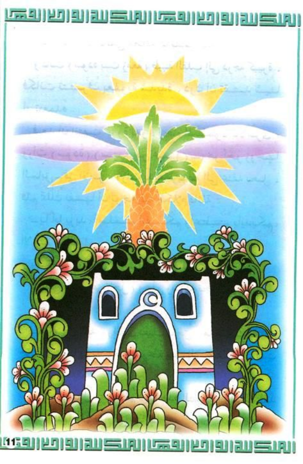
ـ يا رسولَ اللَّه ، لقد جعلتُ يَوْمِى ولَيْلَتِى لـ (عائشة) .

ففعلَ الرسولُ ﷺ ذلكَ ، وتفرَّغَتْ (سَوْدَةُ بنتُ زمعةَ) لإرضاءِ رسول اللَّه ﷺ ، وحَرَصَتْ على التقرُّبِ إلى اللَّه ، فراحَتْ تَجْتَهِدُ فى العبادة ، وتفتخرُ بأنها ترتبطُ برسول اللَّه ﷺ بالرباط المقدسِ .

كانتْ (سَوْدَةُ بنتُ زمعةَ) مَرِحةً خفيفةَ الظلِّ ، فكانتْ سببًا فى التخفيف عنْ رسول اللَّه ﷺ بما كانتْ تملكُهُ من هذه الروحِ السمحة ، وكانتْ تُضْحِكُه ضحكًا بريئًا .

فقدْ صلَّتْ خلفَ النبىِّ ﷺ ذاتَ لَيْلَة ، فأطالَ النبىُّ ﷺ فى الركوعِ ، فلما انتهَى منْ صلاته ، قالتْ لَهُ :

ـ يارسولَ اللَّه ، صليتُ خَلفكَ الليلةَ ، فركَعْتَ بى فأطلتَ ،



حتَّى أمسكتُ بأنفي مخافةَ أنْ يقطرَ الدمُ .

وكانتْ (سَوْدَةُ بنتُ زمعةَ) طيبةَ القلب إلى درجة كبيرة ، فكانتْ تتصرَّفُ بعفويةٍ شديدة ، دونَ أن تقصدَ شيئًا أو تتعمدَهُ .

فبعدَ أن انتهتْ غزوةُ بدرٍ ، وجاءَ المسلمونَ بالأَسْرى ، ورأتْ (سَودةُ) (سُهيلَ بنَ عمرٍو) ــ وهُو أخُو زوجِها السابقِ ــ في الأَسْرِ ، ورأتْ يديه مربوطةً إلى عُنُقِه بحبلٍ ، فلمْ تملكْ نفسَها أنْ توجِّهَ إليه الكلامَ قائلةً :

ــ يا أبا يزيدٍ ، أسلمتُمْ أنفسَكُمْ وأعطيتُمْ بأيديكمْ ، ألا مُتُّمْ كرامًا !

وسمعَها الرسولُ ﷺ فناداها منَ البيتِ ، وقالَ لها :

ــ أعلى اللَّهِ (عزَّ وجلَّ) وعلى رسولِه تُحرِّضينَ ؟

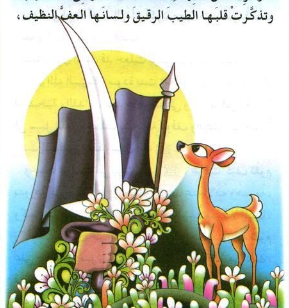
فأجابتْ قائلةً :

ــ يا رسولَ اللَّهِ ، والَّذي بعثَكَ بالحقِّ ، ما ملكتُ نفسي حينَ رأيتُ أبا يزيدٍ ، مجموعةٌ يداهُ إلى عُنُقِه ، أنْ قُلْتُ ما قُلْتُ !

وكانَ الرسولُ ﷺ يَعْلَمُ فيها هذه الصفةَ ؛ ولذلكَ فقد سكتَ عنها ولم يُلحَّ في عتابِها .

وعاشَتْ (سَوْدَةُ بنتُ زمعةَ) في بيت النبيِّ ﷺ ، وامتدتْ بها الحياةُ حتَّى زمنِ (عمرَ بنِ الخطابِ) ، فماتتْ في آخرِ خلافة (عمرَ) .

وحَزِنَتْ من أجلها (عائشةُ الصدِّيقةُ رضىَ اللهُ عنها) ، وتذكَّرتْ قلبَها الطيبَ الرقيقَ ولسانَها العفَّ النظيفَ ،



كما تذكَّرتْ حرْصَها على إرضاء رسول اللَّه ﷺ بأىِّ صورة ، حتَّى وإنْ كانَ فى ذلكَ تنازلٌ عن حقِّها عن طيب خاطرٍ ورضا نفسٍ .

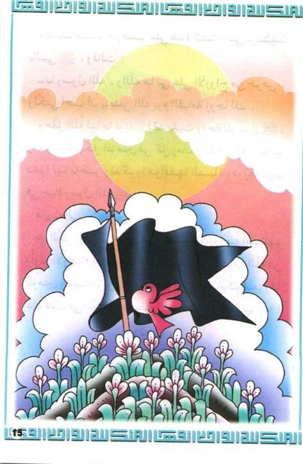
وقالتْ (عائشةُ) وهى تودِّعُها إلى مثواها الأخير :

ـ ما من امْرأة أحبَّ إلَىَّ أنْ أكونَ معها من (سودة بنت زمعةَ) ! لـمَّا كبرَتْ ، قالتْ :

ـ يا رسولَ اللَّه ، قدْ جعلتُ يومى منكَ لـ (عائشةَ) !

رَحِمَ اللَّهُ السيدةَ (سَوْدَةَ بنت زمعةَ) ، الَّتى كانتْ مثالاً للتضحية والفداء ، فقدْ هاجرتْ هى وزوجُها إلى الحبشة فى سبيلِ اللَّه ، وتحمَّلتْ بشجاعة الموقف وأثبتتْ أنها جديرةٌ بحبِّ المسلمينَ وثقة رسول اللَّه ﷺ .

وعندما انتقلتْ إلى بيتِ النبىِّ ﷺ ، عرفتْ كيفَ تقومُ بدورها كزوجةٍ ترعَى زوجَها وتُخَفِّفُ عنه آلامَهُ وهُمومَهُ ، وكمؤْمنةٍ صادقةِ الإيمان لا يعرفُ الشكُّ سبيلاً إليها ، وكَأمٍّ للمسلمينَ حَرصَتْ على أنْ تَبْقَى مجرَّدَ زوجة تقومُ على خدْمَة الرَّسول ﷺ ، ولا تتطلَّعُ إلى أكثر من ذلكَ ، فقدْ كانتْ تُدْركُ أنَّ الارتباطَ ـ مجردَ الارتباط ـ برسول اللَّه ﷺ تشريفٌ ما بعده تشريفٌ .



ولذلكَ فَقَدْ حَرَصَتْ على هذهِ الصِّلةِ التي تربطُها بالنبيِّ ﷺ ، وقالتْ :

- يا رسولَ اللَّهِ ، واللَّهِ ما بي على الأزواجِ من حِرْصٍ ، ولكنِّي أحبُّ أنْ يبعثَني اللَّهُ يومَ القيامةِ زوجًا لكَ .

وحقَّقَ اللَّهُ لها ما تريدُ ، فقد بقيتْ زوجةً للرَّسولِ ﷺ ، وصارتْ أُمًّا لكلِّ المؤمنينَ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، إذا ذُكِرَتْ دَعَوْا لها بالخيرِ وتذكَّرُوا مواقفَها النبيلةَ ودورَها المهمَّ في حياةِ رسولِ اللهِ ﷺ .

قالَ تعالَى :

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ . [الأحزاب : ٦]

(تمَّتْ)

الكتاب القادم

عائشة بنت أبي بكر (١)

أحب زوجات النبي إلى قلبه

رقم الإيداع : ٢٠٠١/٢١٣٨